عمالقة الأدب

- عباس العقاد (عنفوان الفكر الوقور)
- طه حسين (العميد الذى قهر الظلام)
- فكرى أباظة (البرلمانى المشاغب)
- يوسف السباعى (أديب عاقر السياسة وقتلته)
- إحسان عبد القدوس (فارس الحب والسياسة)
- يحيى حقى (رجل فى ضوء قنديل)
- بديع خيرى (شيخ الزجالين وامبراطور الضحك)

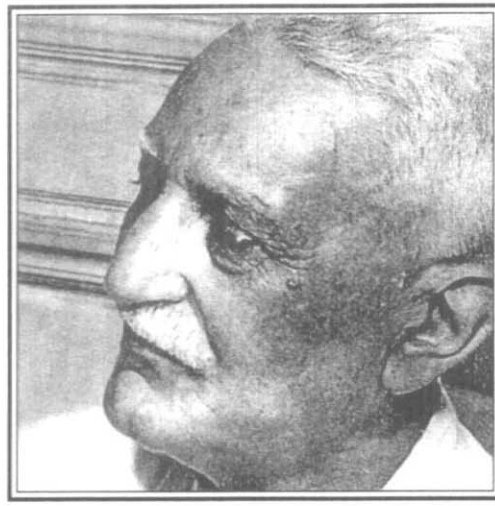

عباس العقاد

عنوان الفكر الوقور

- عملاق القيمة والقامة وعبقرى.. الابتدائية!!
- سجنه الملك فؤاد لقوله: «الأمة على استعداد لسحق أكبر رأس يخون الدستور»
- تمنى العقاد أن يعشق ألف امرأة.. وأحب سارة ومى زيادة معاً
- خاض العديد من المعارك الفكرية والسياسية بشجاعة وقلم لا يرتجف
- هاجم شعر أمير الشعراء أحمد شوقى
- عبقريات العقاد ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف

عندما يكون المرء عملاقا فى قامته، فإنه يلفت اهتمام عيون الناس وعندما يكون عملاقاً فى قدره وثقافته وإبداعه وإحساسه بكرامته، فإنه يلفت قلوب وعقول الناس وكان عباس محمود العقاد عملاقًا فى قامته، وفى قدره وثقافته وإبداعه، وإحساسه بكرامته، فدخل عيون وقلوب وعقول الناس.

من أنس الوجود، حيث المعابد الفرعونية والآثار الزاهرة جاء الفتى يحمل بين ضلوعه بذرة المجد والنبوغ كأجداده الفراعنة، يجرى فى عروقه دم الشلال الأسوانى المتدفق، فإذا هو شلال عفى عات فتدفق يملأ الدنيا حياة وفكرًا وشعرًا، ومعارك دائمة، وإذا هو صلب كصخر الجرانيت، مشرق كشمس بلاده، جاد، متين البنيان، بديع التكوين كأبى سنبل، متجدد كالنهر. هو عملاق الأدب العربى «عباس العقاد».

لو كان بين أدبائنا القدماء والمحدثين من يستحق لقب العملاق الأسطورة لكان هو العقاد، ذلك الذى حقق المعجزات الخارقة فى عالم الثقافة العربية بقدرات ذاتية أشبه بقدرات أبطال الأساطير. رفع العقاد قامة الكاتب وقدره فى المجتمع، جعله نجما من النجوم يخطب القوم وده، وأصبح الكاتب على يديه ندًا للملك ورئيس الوزراء فى المكانة الاجتماعية، ويفوق كلا منهما فى المهابة والتقدير.

كان عاشقًا للمعارك دفاعًا عن الحق، انحاز دومًا إلى جانب الشعب، عرف طريق العظمة والعظماء، أسدى للإسلام والمسلمين الخير الكثير، كتب عن عظماء الإسلام محمد وأبى بكر وعمر وخالد وعلى، بما يستحقه نبى الإسلام وأصحابه من عظمة وتقدير، فنشر عبقرية هذا الدين على نطاق واسع.

وُلِدَ عباس محمود إبراهيم مصطفى العقاد فى ٢٨ يونيو ١٨٨٩م، كان والده

يعمل أمينًا لدار المحفوظات بمدينة أسوان، جده كان يعمل بعقد الحرير فى مدينتى دمياط والمحلة الكبرى، ومن هنا جاء اسم العقاد، وكانت أمه تنحدر من أصول كردية، ورثته طول القامة وبعضا من دم صلاح الدين الأيوبى، وكان الشعور بالكرامة وعزة النفس والإباء والشمم من خصال طفولته.

أول موظف يستقيل

التحق العقاد بكُتَّاب الشيخ نصير فى أسوان عام ١٨٩٦م، وحفظ القرآن وعمره ٧ سنوات، وتخرج من المدرسة الابتدائية فى أسوان عام ١٩٠٣م، ثم تبرع بالتدريس فى المدرسة الخيرية فى أسوان، ثم عمل موظفًا تحت التمرين فى مديرية قنا، ثم موظفا بقلم القيد بالفيوم، ثم ثُبت فى الوظيفة فى ذات العام، وانتقل إلى القسم المالى فى الزقازيق عام ١٩٠٥م. وعندما استقال من وظيفته بالزقازيق التحق بمدرسة الفنون والصنايع، ثم عمل موظفا فى مصلحة التلغراف لمدة ستة أشهر، بعدها استقال ليكون أول موظف يستقيل بمحض إرادته.

اشتغاله بالصحافة والأدب

فى عام ١٩٠٧م توفى والده، وتفرغ للصحافة والأدب، ولكن كيف أصبح العقاد أديبًا؟ وما الذى دفعه إلى حب الأدب؟

الإجابة على لسان العقاد نفسه. حيث كتب يقول: «كان والدى أمين الدفترخانة بأسوان لكنه كان مولعًا بالأدب، يحب الأدباء ويعشق مجالسهم، وكثيرًا ما كان يصطحبنى معه إذا نهض لمقابلة أحدهم وسماع ما ينثره على الجالسين حوله من ثمرات قرائح الأدباء، وكنت فى ذلك الحين أستطيب مثل هذه المجالس كلهو برىء وتسلية ممتعة، وأجدُ فيها راحة لنفسى من عناء المدرسة وتكاليفها المملة، وما يُكرهنى والدى على الذهاب معه إلى الديوان أثناء الأجازة.

وكان فى أسوان فى هذا الوقت أستاذ جليل يدعى «أحمد الجداوى»، وهو أديب فاضل، كان من عادته أن يجلس فى بيته فيفد عليه الطلبة وعشاق الأدب ليستمعوا إلى دروسه، وما يلقيه عليهم من نتاج أفكاره وبحثه فى الأدب العربى،

وكان هذا الأستاذ حافظا لمقامات الحريرى يتلوها تلاوة جيدة بلا تعثر فى الإلقاء أو خطأ فى تراكيب الجمل والعبارات.

وحدث أنى ذهبت ذات ليلة إلى منزله مع والدى، فوجدته جالسًا بين جمع من الشبان يحدثهم تارة عن الأدب والأدباء ويطارحهم الشعر تارة أخرى، واستمعت إلى حديثه وأعجبت بما عليه هذا الرجل من ذكاء وأدب، وحبب إلى نفسى الأدب لأول مرة، ورغبت أن أتخذه فنا أضرب فيه بسهم كما ضرب فيه هذا الأستاذ، وصرت من ذلك الحين مهتما بحفظ الشعر ومطالعة الكتب الأدبية كى يكون لى منها ثروة أستطيع أن أنتفع بها، وأخذت أتمرن على قرض الشعر وساعدنى فى ذلك مباراتنا المدرسية التى كان يعقدها لنا فى إلقاء الشعر العربى، حتى كنت أستعيض عن محفوظاتى الشعرية بأبيات أنظمها من تلقاء نفسى.

أبياته الأولى

وقد كانت أول أبيات أنظمها من تلقاء نفسى فى عمر الحادية عشرة وكانت هذه الأبيات:

علم الحساب له مزايا جمة
وبه يزيد المرء فى العرفان
النحو قنطرة العلوم جميعها
ويبين غامضها وزين لسان
وكذلك الجغرافيا هادية الفتى
لمسالك البلدان والوديان

بدأ العقاد عمله فى الصحافة فى صحيفة «الدستور» سنة ١٩٠٧م مع المفكر محمد فريد وجدى، ولم يمض عام على عمله فى الصحافة حتى أصبح أول صحافى يجرى حواراً مع وزير، هو الزعيم الوطنى سعد زغلول، وزير المعارف فى ذلك الوقت.

أغلقت «الدستور» عام ١٩٠٩م، واضطر العقاد، تحت ضغط ظروف الحياة

المعيشية، إلى بيع كتبه، إضافة إلى قيامه بإعطاء بعض الطلاب دروسًا خصوصية. ولكنه لم يتمكن من مجابهة الأعباء المادية، فاضطر إلى السفر عائدًا إلى أسوان، حيث ألف كتاب «خلاصة اليومية» واستقر فى أسوان سنتين، وعانى فى هذه الفترة من آلام المرض وضيق اليد.

العودة إلى القاهرة

عاد العقاد إلى القاهرة، حيث تعرف إلى عبد القادر المازنى، وتوثقت الصلة بينهما عام ١٩١١م. وكان الأديب محمد المويلحى، صاحب كتاب «عيسى بن هشام»، من المعجبين بكتابات العقاد، فأسند إليه سنة ١٩١٢م، وظيفة مساعد لكاتب المجلس الأعلى لديوان الأوقاف.

وتعرف خلال تلك الفترة إلى الأدباء والشعراء أمثال عبد العزيز البشرى، ومصطفى الماحى، وأحمد الكاشف، وكان يكتب مقالات فى «البيان» و«الجريدة» وألف كتاب «الإنسان الثانى».

وكتب تلك السنة مقدمة الجزء الثانى من ديوان عبد الرحمن شكرى، وكتب فصولاً نقدية فى مجلة «عكاظ». كما كتب عام ١٩١٨م فى صحيفة «الأهالى» لصاحبها عبد القادر حمزة. ونجح العقاد بعد عمله فى جريدة «الأهرام» سنة ١٩١٩م، فى كشف خداع وتدليس لجنة «ملنر» من خلال تلاعبها فى ترجمة النصوص الخاصة بالحكم الدستورى لمصر. وانضم إلى جماعة «اليد السوداء» المعارضة للحكم، واشترك فى كتابة منشوراتها.

وحين أعياه المرض عام ١٩٢١م عاد إلى أسوان، حيث نشر الجزء الثالث من ديوانه، واشترك مع المازنى سنة ١٩٢٢م، فى تأليف كتاب «الديوان فى النقد والأدب»، كما أصدر كتاب «فصول» وإلى جانب مقالاته فى «الأهرام» عمل فى صحيفة «المحروسة».

انضم إلى حزب الوفد بقيادة سعد زغلول عام ١٩٢٣م، وعمل فى صحيفة

«البلاغ» ونشر كتابه «مطالعات فى الكتب والحياة». ثم انشق عن الوفد سنة ١٩٣٣م، وأصدر ديوانه «وحى الأربعين» كما أصدر، فى العام ذاته ديوان «هدية الكروانه».

وأصدر سنة ١٩٣٦م صحيفة، «الضياء»، لكنها لم تستمر، وكتب فى صحيفة «الفتاة» مهاجمًا معاهدة ١٩٣٦م وأصدر عام ١٩٣٧ ديوان «عابر سبيل» وانضم إلى عبد القادر حمزة فى تحرير جريدة «البلاغ» ونشر سنة ١٩٣٨م قصة «سارة» وعام ١٩٣٩م كتاب «رجعة أبى العلاء». وأصدر كتابين عام ١٩٤٠م هما «هتلر فى الميزان» و«النازية والأديان» وعين عضواً فى المجمع اللغوى.

سافر إلى السودان سنة ١٩٤٢م وأصدر تلك السنة ديوان «أعاصير مغرب»، ونشر كتابى «عبقرية محمد» و «عبقرية عمر».

وعين عام ١٩٥٦م عضواً فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ومقرراً للجنة الشعر، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٩م.

معارك سياسية

خاض العقاد العديد من المعارك الفكرية والسياسية بشجاعة وقلم لا يرتجف. ومن أهم المعارك السياسية التى خاضها، عندما كان عضواً فى البرلمان، دفاعه عن الدستور وحملته على من يحاولون النيل من حقوق الشعب. وقال آنذاك: «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدى عليه»، وكان يقصد بأكبر رأس الملك فؤاد، ولذلك قُدم إلى المحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية، وحُكم عليه فى أكتوبر سنة ١٩٣٠م بالسجن مدة تسعة شهور.

انشق العقاد سنة ١٩٣٣م عن حزب «الوفد» وحمل على وزارة توفيق نسيم، التى كان من المفترض أن تعيد الدستور وتمهد لوزارة وفدية يرأسها مصطفى النحاس. وكان يرى أن هذه الوزارة تعمل لحساب «السراى» الملك فؤاد، تارة، ولحساب الإنجليز طوراً آخر. كما حارب العقاد الفاشية والنازية فى قمة انتصارهما، وتوقع لهما الزوال.

وفى عهد الزعيم الوطنى سعد زغلول لم يطلب منه الكف عن الكتابة أو تخفيف الحملات ضد خصومه.

ولم يكن العقاد يُساق فى خصوماته السياسية إلى الحد الذى يُنسيه واجب الخلق ويصرفه عن المثل العليا. فالعقاد السياسى رجل أخلاق قبل كل شىء، وللأخلاق أثر كبير فى حياته السياسية والأدبية.

قامت زوبعة فى البرلمان ضد كتاب «الشعر الجاهلى» وصاحبه الدكتور طه حسين، الذى كان من خصوم العقاد السياسيين، وكان حزب الوفد هو صاحب هذه الحملة، وكان من المنتظر أن ينضم العقاد إلى حزب الوفد فى حملته بوصفه من الأعضاء الوفديين فى البرلمان. لكن العقاد دافع عن حرية الرأى وإعطاء الحرية للأديب ليكتب ما يشاء، وتحولت الحملة لصالح صاحب الكتاب نسبيًا، وحُوِّل الكتاب إلى لجنة من أديين كبيرين لفحصه وتقديم تقرير عنه، فقام العقاد مرة ثانية ليقول: «إن أعضاء اللجنة لا يبلغون شأو مؤلف الكتاب».

وكانت معاركه الأدبية أيضًا ساخنة. فقد هاجم شعر أحمد شوقى، فى الوقت الذى كان شوقى ملء الأسماع، يردد الناس أشعاره بشغف لِمَا فيها من جمال وصور وموسيقى. وكانت أشد معاركه الأدبية مع مصطفى صادق الرافعى، فقد استمرت هذه المعركة طويلاً، وكأن كل واحد منهما يتربص بالآخر، وقد هاجم العقاد، الرافعى فى كتابه «الديوان».

وكان من الطبيعى أن يرد الرافعى على العقاد، وينتقد شعره ويتهمه بالجمود والضعف والركاكة.

كل الناس ولا عباس

ويقول العقاد إن الأمهات كن يقلن لأولادهن حين يقتربون للعب معه: «امزح مع من شئت يا بنى، ولكن: «كل الناس ولا عباس».

لكن العقاد فى حقيقته كان ساخرًا، ويضحك من قلبه للنكتة إذا ألقاها غيره،

ويعلق بقفشات ظريفة. وكان له الكثير من الشعر الخفيف والزجل أيضًا، ومن أشعاره الساخرة، حين ولدت كلبة أحد أصدقائه، قوله محييًا المولود الجديد:

أعلنـــى يـــا فلـــورة الأفـــراحـــا
واملئى الأرض والسمــاء نباحـا
ماحبـا الدهـر بنـت كلـب بأعلـى
مـن ذراريـــك نـصراً ولقـاحـا

ومات كلب العقاد، فهجاه قائلاً بسخرية ظريفة، رغم حزنه الشديد عليه:

حزناً على «بيجو» تفيض الدموع
حزنًا على «بيجو» تثور الضلـوع
حزنًـا عليـه جـهـد مـا أستطيـــع
وإن حـزنًـا بـعـد هـذا الـولـوع
واللـه يـا «بيجـو» لحزن وجيـــع

متعدد القدرات

لم يكتسب العقاد مكانته الأدبية الرفيعة من جاه، ولا من وظيفة، أو من لقب علمى، حيث لم يحصل سوى على الشهادة الابتدائية. وقد رفض أن تمنحه الجامعة الدكتوراه قائلاً: «من هذا الذى يستطيع أن يمنح العقاد الدكتوراه؟» وكان يقول باستمرار «إن واجب الأدب العربى المعاصر أن يتطور بأدبنا فى ضوء الآداب الغربية حتى يخرج به من عالمه التقليدى بقيوده وأغلاله اللفظية والمعنوية إلى عالم حر فسيح، تندفع فيه أمتنا العربية اندفاعًا إلى حرية التفكير والتعبير».

وانفتحت له أبواب الأدب العربى والآداب الغربية على مصراعيها، ونفذ من كل ذلك إلى صورة أدبية عربية جديدة، كما يقول الدكتور «شوقى ضيف».

وترجم العقاد لطائفة من أعلام العروبة ورجال الإسلام، وابتغى من ترجمته

لهم أن ينصفهم وأن يوفيهم حقهم من الثناء والإعجاب، كما ابتغى أن يتخذ الشباب منهم المثال والقدوة الحسنة فيترسموا خطواتهم ويمضوا على نهجهم، ويزدادوا صلابة فى دينهم وقوميتهم وعروبيتهم. وقد جعلته هاتان الغايتان لا يُعنى فى أكثر الأمر بسيرة من ترجم لهم، بل بتحليل شخصياتهم الإنسانية، وأن يُعنى بنواحى الكمال فى تلك الشخصيات.

وعبقريات العقاد ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف وإنما هى صور تشخص الملكات والأخلاق، ولذلك قلما اهتم فيها بالأحداث والوقائع، وحتى أرقام السنوات التى ولد فيها أصحاب العبقرية وتوفوا قلما وقف عندها، لأنه لا وزن لها فى الصورة التى قصد بها إلى رسم المزايا والخصائص الخلقية والنفسية والإنسانية للعبقرية.

العملاق العاشق

كان العقاد عاطفيًا جدًا، لكنه لم يوفق فى حبه، ولم يصادف المرأة التى تصون هذه العظمة الفكرية، فشاء القدر أن يحجب عنه القلب الوفى، رغم أنه كان يقول دائمًا إنه يتمنى أن يعرف ألف امرأة ويعشقها.

أحب العقاد سارة ومَىْ فى وقت واحد. وكانت مَىْ أديبة مفوهة، وكان أسلوبها البلاغى فريداً، وطباعها شرقية أصيلة، ولعل هذا التميز فى شخصيتها هو أول ما جذب انتباه العقاد لها، حين رآها لأول مرة فى مجلة «المحروسة» وكان عمره لا يزيد على سبعة وعشرين عامًا، وكانت مَىْ لم تتجاوز الحادية والعشرين.

وكتبت مَىْ فى إحدى رسائلها إلى العقاد: «إعجابى بقصيدتك البليغة فى معناها ومبناها فاق كل إعجاب، وقد اغتبطت بها غبطة لا حد لها، واحتفظت بها فى مكان أمين بين أوراقى خوفًا عليها من الضياع، إننى لا أستطيع أن أصف لك شعورى حين قرأت هذه القصيدة، وحسبى أن أقول لك إن ما تشعر به نحوى هو نفس ما شعرت به نحوك منذ أول رسالة كتبتها إليك وأنت فى بلدتك التاريخية

أسوان. بل إننى خشيت أن أفاتحك بشعورى نحوك منذ زمن بعيد، منذ أول مرة رأيتك فيها فى دار «المحروسة» إن الحياء منعنى، وقد ظننت أن اختلاطى بالزملاء يثير حمية الغضب عندك، والآن عرفت شعورك، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران».

كانت مَىْ تحبه، ولم تكن تعلم شيئًا عن حبه لسارة، التى كانت مثالاً للأنوثة الدافئة، ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وإن كانت تهتم أيضًا بالثقافة، وقد ملأت سارة حياة العقاد سروراً ومرحًا، وكان للأيام السعيدة التى قضاها معها أثر كبير فى أدبه، إلا أن شبح الشك الرهيب بدأ يكشر عن أنيابه ويعكر صفو تلك العلاقة حتى انتهت، وقد أصبحت قصة الحب هذه عنوانًا لقصته الوحيدة.

الزيارة الأولى والأخيرة

وعندما شعرت مَىْ بأن هناك شبح امرأة فى حياة العقاد زارته على حين غرة فى مكتبه، وهى الزيارة الأولى والأخيرة فرحب بها وأبدى استغرابه لزيارتها المفاجئة وابتهاجه بسؤالها عنه، وأنصت لها. فقالت بعد فترة وصوتها يتهدّج: «لست زائرة ولا سائلة». ونظرت إليه كمن يستحلفه ألاّ يتكلم وانحدرت من عينيها دمعتان، فما تمالك نفسه وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها فمنعته، ولم تكف عن النظر إليه، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسة «دع يدى ودعنى» وأبرم العقاد هدنة مع قلبه، ولكن الحب عاد فى العقد الخامس من عمر العقاد وانتهك هذه الهدنة. ووقع العقاد أسيرًا للحب مرة أخرى، وكانت الحبيبة هذه المرة فتاة سمراء دعجاء العينين أحبت العقاد، وكان يخشى على قلبه من شبابها، ولم تكن تعرف هنومة، قيمة العقاد، ولم يقبل المحب الكبير المشاركة فى الحب، فهو لا يمكن أن يكون واحدًا ضمن عشرات من الناس الذين يحبونها أو تحبهم. هنومة، تلك أصبحت ممثلة مشهورة معروفة.

نهل العقاد من شئون المرأة أكثر من غيره وخصص لدراستها أربعة كتب هى:

الإنسان الثانى أو المرأة عام ١٩١٢م، وهذه الشجرة، دراسة شاملة عن المرأة عام ١٩٤٥م، و «المرأة فى القرآن» عام ١٩٦٠م، و «المرأة ذلك اللغز»، كما خصص كتابين لشخصيتين من النساء أولاهما: «الصديقة بنت الصديق» عام ١٩٣٤م، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وثانيتهما «فاطمة الزهراء والفاطميون» عام ١٩٣٨م، أما «سارة» فهى قصته الوحيدة، وهى تاريخ أدبى للمرأة.

فلسفة الحياة

كان العقاد فيلسوفًا صاحب رأى ورؤية فى كل أمور الحياة، ويقول عن الحب: «الحب قضاء يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان، ولو دخل فى مشيئته لما استولى عليه ولا غلبه على أمره. قال بعض الحكماء إن الحجر الذى تقذفه بيديك يحسب أن يطير فى الجو باختياره لو كان له شعور، وهكذا يحسب العاشق وهو يتهالك على معشوقته، يحسب أنه هو الذى يريد ما يصيبه ولايزال على حسبانه حتى يحاول ألاَّ يريد، فلا يستطيع.

ويوجز العقاد خلاصة فلسفته فى الحياة فيقول: «غناك فى نفسك، وقيمتك فى عملك، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك، ولا تنتظر من الناس كثيرًا».

تكريم ورحيل

فى سنة ١٩٥٩م سلم جمال عبد الناصر جائزة الدولة التقديرية للكاتب الكبير عباس العقاد، الذى توفى بعد خمس سنوات فى ١٣ مارس (آذار) سنة ١٩٦٤م، بعد أن ترك من خلفه حوالى ٩٠ كتابًا منها أحد عشر ديوانًا شعريًا. ومن أشهرها العبقريات، وكانت كلها دليل عبقرية العقاد.